من روائع الأدب العربي

محمود تيمور

الشيخ عفا الله

مجموعة قصصية

دار المحرر الأدبي

obeikandl.com

الشيخ عفا اللّه

مجموعة قصصية

محمود تيمور

obeikandl.com

دار المصر الأدبي

www.elmohrereladbe.com

فن كتابة القصة

يجمل بي قبل الشروع في الموضوع أن أشيرَ إلى أن الكتابةَ القصصية يجب أن يتوافرَ فيها ركنان: الأولُ: الموهِبة، والآخر: جريُ القصة على قواعدَ وأساليبَ متعارَفة. شأنها في ذلك شأنُ الشعر، لابد من توافر ركنين فيه: الشاعرِية، وصحةِ النظم.

ومما لا جدالَ فيه أننا قد نجد الشاعر الموهوب، أعنى من يَلْهم المعانيَ الشعرية، فيفيض بها وجدانه من غير تعمّل، فإذا حاول النظمَ لم تستقم له الأبيات، لقلة بِضاعته من قواعد العَروض، وحداثة عهده بصوغ الشعر. ومثلُ هذا لا يُعد شاعراً تاماً حتى يُكمل ما نقصه بالتعّلم والمرانة.

وكذلك الشأن في القاصِّ، فقد نجد من أوتى الموهبة، أعنى الذي يُلهم فكرةً أو موضوعاً قصصياً له قيمة؛ ولكنه

obeikandl.com

نــاقصُ القــدرة على معالجــة موضــوعه أو فكرتــه بالأســاليب المقبولة عند أهل الفن في نَسْق القصة. وفي مثل هذه الحالة لا يسعنا أن نعتبر ذلك الموهوبَ قاصّاً مكتملَ النضج.

وإذن يجـب أن يتــوافر للقــاص الكامل هـذان الركنـان معــاً: فأمــا الأول، وهــو الموهبــةُ، ومَعِينهــا الخيــالُ المنســرح، والـذهنُ المتوقـد، والعاطفـةُ المشـبوبة، فلا كلام لأحد فيـه، إذا هو شئ طبيعي، فإن وُجد في الكاتب تهيأ ليكون قاصّاً في المرحلة الأولى. وأما الـركن الآخر، وهـو الاستئناس بالأساليب المتعارفـة، فــذلك الــذي نخصــه بــالكلام، لأنــه صــناعة، مرجـعُ الأمـر في امتلاك ناصيتها للتمرين والاكتساب.

وقـد يتـوهم البعض - ونحـن نـذكر القواعـد التي يجب على الكاتـب القصصي مراعاتهـا - أننـا إنمـا نطغى على حقـه في اتخـاذ طريقـة خاصـة تلائـم هـواه، ونحـدُّ مـن حريتـه في اتبـاع المـذهب الــذي يــراه. والواقــع الــذي لا يمكــن التغافــل عنــه أن هناك قـوانينَ عامةً مرعية الجانب في التأليف القصصي، على اختلاف المذاهب والأهواء، وأنه إذا خلت القصة من مطابقة هـذه القـوانين العامة، شـعرَ النـاقد لأول وهلـة بـأن هنـا اختـلالاً ظاهراً، وأن هنـا شـيئاً يجـب أن يُبـدَل بـه شيء، لا دَخْل في ذلك للطريقة الخاصة، ولا للمذهب الخاص.

obeikandi.com

وهل ينكر أحد أن كل شأن في الحياة يسير - في جوهره ولُبابه - وفَق نظام وقانون؟ تلكم هي السيارة، فربما اختلفت أصنافها وأشكالها وعُددها أيّما اختلاف؛ بيد أنها - مع هذا كله - يجب أن تكتمل فيها أدوات عامة مشتركة، إذا فقدت واحدة منها تعطلت السيارة على الفور. وما القصة إلا عمل فنّي من نتاج الفكر، يسير كأمثاله من الأعمال الفكرية على نظام دقيق، خاضع للناموس العام المعترف به في جميع ألوان الأدب

كذلك قد يعترض علينا معترض فيما نلزم الأخذ به من هذه الأصول والقوانين، فيرى أن الفنان العبقريّ يصدر عنه العمل الفنيّ المشهود له دون تعلم ودراسة، ودون تدّرج وتدريب. وجواب ذلك أن كبار الفنانين العباقرة، إنما يفهمون هذه الأصول والقوانين بالفطرة الفذّة، ويهتدون إليها بالسليقة النيرة؛ فهم يخرجون أعمالهم الفنية بوحي من قرائحهم الممتازة التي يكمن فيها النبوغ. وليس أدلَّ على ذلك من أننا لو سألنا أحدهم عما صنعه في تأليف هذه القطعة أو تلك، وماذا لاحظ، لم يُحرْ جواباً. لأن ما أنتجه صدر عن غير وعي منه.

وقصارى ما نقرره، أن هذه الأصول والقواعد التي نلخصها في العُجالة التالية، ليست إلا أقيسةً وموازين استخلصت لتكون أساساً تُبنى عليه الأحكام في تقدير

القصص الفني؛ فأن حرمت أن تكون عادلة كل العدل، لم تحرَمْ أن تكون أدنى إلى الصدق وأحق بالاعتبار.

ثم إن هذه الأصول والقواعد، تبِّصر القَصصي إلى حد ما بصناعة الكتابة في هذا النوع من الأدب، وترشده إلى الخطوط الرئيسية في القصة، وتَقِفُه على المميزات الأولى بين الخطأ والصواب في النسق. وما أشبهها في هذه الحالة بعلم البيان والمعاني والبديع، فعلى الرغم من أن الكلمة الأولى والأخيرة في البلاغة للذوق السليم، وخضوع الكلام لمقتضى الحال - وضع العلماء قواعد وأصولاً تتوضح بها أركان البلاغات، فقالوا: هذه كلمة فصيحة، وهذه جملة بليغة، لتُميُّزها بكيتَ وكيتَ، وخلوِّها من كذا وكذا. ومعلوم أن هذه القواعد لم توضع أولاً، ثم طلب من الكتاب والمنشئين أن يَجْروا عليها؛ وإنما كانت هذه القواعد نتائج مستخلصة من أمثلة بليغة، أقر أهل البلاغة بسموها، واتفقوا على جودتها، فاستخرجوا منها الأسباب التي رفعتها إلى هذه الدرجة، وسرعان ما تحولت هذه الأسباب إلى قواعد.

وذلك هو صنيعنا نحن الآن في القواعد والأصول التي نعالج بسطها، ونقول إن القصة الجيدة تتميز بها.

وأَمَا وقد بدأنا نمسّ جوهرَ موضوعنا، فلنتذكر أولاً أن القصة هي عرضٌ لفكرة مرت بخاطر الكاتب. أو تسجيلٌ

لصورة تأثرت بها مخِّيلَته، أو بسطٌ لعاطفة اختلجت في صدره فأراد أن يعبر عنها بالكلام، ليصل بها إلى أذهان القراء، محاولاً أن يكون أثرُها في نفوسهم مثل أثرها في نفسه، وهي تتألف عادة من ثلاثة عناصِرَ رئيسية، هي: الموضوع، والشخصيات، والحوار. وهذا العنصر الثالث ليس من المقوِّمات المحتومة دائماً، ولكنه لازم في أغلب الأحيان. فتبدأ القصة بالتمهيد للفكرة، ثم تتطرق إلى ظهور العقدة، ثم تتوصل إلى حل هذه العقدة أو ما يشبه الحل، وهذا هو الهيكل المألوف في بناء القصة على وجه عام.

فمن القواعد في كتابة القصة، ما نذكره فيما يلي:

أولاً: أن تكون للقصة وَحدةٌ فنية. وبهذه الوحدة تتوافر فنية القصة. وما الوحدة الفنية إلا أن يجعل الكاتب همه مقصوراً على إبراز الفكرة الأساسية، مجتنباً جُهدَ الطاقة أن يتطرقَ إلى آفاق أخرى. وإيضاحُ ذلك أن يُراعِيَ الكاتب حصر عمله في جوهر الموضوع، خالصاً من طغيان الزخرف، فلا تَطمسُ التفاصيل الثانوية ذلك الجوهرَ الجدير بالعناية والإيثار. والقدرةُ الكتابية تظهر في التملك لزمام الصميم من الموضوع، كالفارس القابض على زمام جواده لا يدعه يجمحُ به ما طاب له الجموح.

فواجب إذن أن يُخضعَ الكاتب جرات قلمه لموضوعه، ولا يدع الموضوع خاضعاً لقلمه يجرّه حيث شاء. فإن استطاع أن يخلص لموضوعه هذا الإخلاص ظهرت أفكار القصة متعاشقة، وخرجت القصة بنياناً متراصاً لا حجر فيه لغير معنى.

ثانياً: أن يُراعى في عرض الموضوع جانب التلميح ما أمكن وأن يُحذَرَ جانب التصريح. فلا يشرحُ الكاتب الموضوع ويحلل الشخصيات في شكل مهلهل، بحيث لا يترك شيئاً لفطنة القارئ وذكائه. فإذا لم يعن الكاتب بهذا الجانب كان مُتهماً قارئه بالغفلة وجمود الذهن إذ يوضح له ما ليس بحاجة إلى توضيح؛ وإذن تخرج القصة مكشوفة لا يجد فيها قارئها لذة التعرف بنفسه ولا يشعر بشوق إلى ما يجئ منها بعد. فلا بد أن يدع الكاتب للقارئ فرجة يستطيع بها أن ينتهي إلى التصريح من التلميح، وأن يُشيدَ الكبير من الصغير، وأن يشقِ بمخيلتهِ - فيما يقرأ - آفاقاً من التصور والتفكير. وكما أننا نشير بضرورة أخذ الكاتب بالتلميح، نشير كذلك بألا يجنح إلى الإغراق فيه، مخافة التورط في الغموض والإبهام، فيضل القارئ في فَيافٍ لا يقر له فيها قرار.

ثالثاً: أن يعني الكاتب برسم شخصياته، وأن يجعلها تصدر في أقوالها وأعمالها من منطق الحياة التي أراد لها المؤلف

أن تعيشها بواعيتها الظاهرة، وواعيتها الخفية أيضاً؛ حتى إذا مضى القارئ في تفهم هذه الشخصيات، وتصور ما يقع من أمثالها، لم يجد نفسه مصطدماً بشيءٍ غير مألوف يأباه المنطق أو الذوق. وما أجدر أن يلقيَ الكاتب كلَّ باله إلى هذا الجانب من البراعة في التحليل النفسي، فإنه يتوقف عليه شطر عظيم من فنية القصة.

رابعاً: ألا تكون الشخصيات بوقاً ينقل ما يلقى إليه المؤلف من الكلام، فيكون المتكلم هو المؤلف نفسه على لسان هذه الشخصيات الببغاوية. والواجب أن يكون للشخصيات كيانها المستقل، وأن تكون حية في حركاتها وسكناتها، وأن يُحس القارئ من أعمالها حرارة هذه الحياة، ويتعرف من فِعالها ما تتميز به من شمائل وحقائق. فلا تتكلم هذه الشخصيات إلا بالأسلوب الطبيعي الذي يلائم نفسيتها، ولا تعمل إلا وفق الحوادث على منهجها المرسوم لها. وبناء على هذه القاعدة، لا يجوز أن يدلنا الكاتب على شخصية بائسة، بأن يجعلها تقول: أنا بائسة. ولكن يعالج أن تُفصح الحوادث نفسها عن بؤس هذه الشخصية. وهذا إلا إذا كان الموقف بطبيعته يستدعي أن تتكلم الشخصية بلسانها، لتفصح عن حالها.

خامساً: حتم أن يكون لكل قصة معنى، وإلا كانت القصة لغواً لا جدوى له. والقاص - ككل فنان آخر - مصور

للحياة في مختلف ألوانها، مترجم عما يعتلج في رأسه وما يجيش في صدره من معان ومشاعر؛ فهو إذا كتب فإنما يكتب لتصوير هذه المعاني وإيضاح هذه المشاعر. ويصح أن نشير في هذا الصدد إلى أن معاني القاص في الغالب، إما مستمدة من الواقع الذي هو ملء مسموعه ومشهوده، وما هو في نطاق الجو المحليّ الذي يعيش فيه. وإما أن تكون هذه المعاني مستخرجة من صميم النفس البشري، تلك النفس الثابتة بميولها، الخالدة بغرائزها. إلا أن المجد الأدبي لا يكون من نصيب القصة التي يحذق كاتبها رد أصولها ومعانيها إلى أوصال الإنسانية الباقية بتلك الميول والغرائز. فرغبتنا إلى القصاص ألا يعنوا كثيراً بالموضوعات العابرة التي تتغير معالمها بتغير الزمان، وللناس حولها في كل يوم شعور خاص، وحل خاص؛ فإنه إذا تبدل الوقت أصبحت هذه الموضوعات نسياً منسياً، وذهبت قيمتها الاجتماعية والمحلية.

سادساً: يجب ألا تكون الفكرة التي يعالجها الكاتب في قصصه مصوغة في قالب موعظة أو حكمة، وألا يظهر فيها تحبيذ شيء أو النهي عن شيء. بل يجب أن تكون الحكمة أو الموعظة مطوية في غضون الحوادث، خالصة إلى القارئ دون معونة ظاهرة من المؤلف؛ وأن يكون التحبيذ أو النهي كامناً في أعطاف السرد، غير ملموس بالكلام المكشوف.

وذلك هو الفرق بين القصة والمقالة، فالقصة ليست منبراً للخطابة وإلقاء المواعظ، بل هي معرض للتصوير والتحليل، يوحي برموزه وظلاله وإشاراته إلى القارئ بالغرض الذي رمى إليه الكاتب القصصي.

سابعاً: يحسن ألا تخلو القصة من عنصر التشويق، وأعني به أن تستحوذ على القارئ في أثناء قراءته نشوة وروعة تدفعانه إلى متابعة القراءة في نشاط وانتباه. ونلفت النظر إلى أننا لا نبغي بعنصر التشويق أن ينقلب الكاتب مهرِّجاً يفتعل الحوادث افتعالا ليصل إلى هذا الغرض، حاسباً أن ذلك هو الذي يبعث الشوق، فإنه حينئذ يقع في أشياء سخيفة مفضوحة يبدو عليها التكلف والاجتلاب. فلابد من الحذق واليقظة في هذه الناحية بحيث يكون فن الكاتب قادراً على أن يجعل مظاهر التشويق جزءاً طبيعياً من سياق القصة، فإنه بذلك يضمن انتباه القارئ ونشاطه، ويوفر له وسائل اللذة والاستمتاع.

ثامناً: ما يجب أن يجري عليه الكاتب في تحري قصته من وجهة اللغة. ونقدم لذلك بأن اللغة العربية في ذاتها لغة موسيقية، لألفاظها وأساليبها رنين وإيقاع. وقد أرف كتاب العصور المتأخرة في استغلال هذه الموسيقية بالمغالاة في الاستعارة، والإكثار من الترادف، والتزام السجع والطباق وما

إليه. فبلغت الصناعة اللفظية مبلغاً كان فيه القالب أكبر من المعنى وأوسع مجالاً. ثم جاء العصر الحديث يزخر بموضوعاته العلمية، وبحوثه الاجتماعية والفنية، مما لا يحتمل البرشقة والزخرف. فأريدت اللغة على أن تكون القوالب على قدود المعاني، في غير إهمال لما تقتضيه خصائص اللغة من الموسيقية الأخاذة. فيجب أن يُعنى الكاتب إذن بلغة قصته، فلا يبالغ في التحاسين البيانية من نحو الاستعارة والتشبيه والترادف، بل يجعل الألفاظ على أقدار المعاني جهد المستطاع. ولا ينسينا هذا أن بلاغة الكتابة تكون بمراعاة المقام، فالإطناب مستحب في مواقف الإطناب، والإيجاز مطلوب في مواقف الإيجاز. بيد أن هناك شيئاً تجب مراعاته على كل حال، وهو تجنب الأسلوب المبتذل، ونعني بالابتذال في الأسلوب استعمال الألفاظ الشائعة شيوعاً يفقدها الرونق والرواء، والوقوف عند التراكيب الركيكة التي لا تستبين بها قدرة اللغة على التصرف في الأداء والتعبير. وإذا كان على القصصي أن يعرف للمعنى حدوده في الأداء، فإنه باعتباره أديباً عليه أن يتخير اللفظ الرشيق والتركيب الشريف.

وبعد فليست هذه كل القواعد التي يجب أن تبنى عليها القصة. وإنما هي معالم رئيسية اجتهدنا في استخراجها، ونرى وجوب اكتمالها في القصص الفني.

ونختم كلمتنا مصرحين بأن هذه القواعد نفسها لا تهدي القاص الناشئ، قدر ما يهديه اكتسابه للملكة التي يستفيدها من موفور إطلاعه على الآثار الفنية المعترف بها، وحسن تفطُّنه إلى ما فيها من أسرار الجودة والإبداع.

محمود تيمور

الشيخ عفا اللّه

حدثني صديقي، قال:

منذ عشرين عاماً كنت أسكن جهة درب سعادة. ذلك الحي القديم ذو الشارع الضيق والمباني المتزاحمة الأثرية. وكنت إذ ذاك في التاسعة عشرة من عمري أحضر لامتحان الشهادة الثانوية. وفي أوقات فراغي كنت أجلس أمام البوابة أتفرج على الرائح والغادي. وكان يمر أمام الدار (من وقت لآخر) شيخ بملابس بسيطة ضامر الوجه، بلحية خفيفة فيها آثار الشيب ظاهرة. هادئ المشية. يسير في وقار. منكس الرأس على صفارته يناجيها بألحان شجية. فكنت استوقفه وأطلب منه أن يسمعني شيئاً من أنغامه. وكانت جميع ألحانه تحوي كثيرا من معاني

اليأس والحنو. ولاحظت أنه قنوع يرضى بالقليل. وكان إذا استرسل في صفيره خيل لك أن الصفارة تتكلم وتنوح كأنها تحاول أن تفشي سراً! وهو على طهارة قلبه ومظاهر الصلاح الناطقة على وجهه، لا يؤدي أي فرض من فروض الصلاة، ولا يذهب إلى الجامع مطلقا! ولا يتكلم عن شيء اسمه مغفرة ورحمة. وإذا ذكر اسم الله أمامه طأطأ رأسه ذليلا، وتمتم بألفاظ متقطعة غير مسموعة!.

وتوثقت بيني وبين الشيخ ألفة ساذجة. وحاولت أن استوضحه حقيقة آلامه فلم يرض أن يبوح لي بشيء. فاحترمت رغبته وصممت أن لا أفاتحه في هذا الموضوع. وظل الرجل وقتا ما لغزاً لا أستطيع الوصول إلى حله. ومرت الأيام والشيخ يزورنا مرة في الأسبوع فأحظى منه بألحان شجية، وحديث هادئ جميل!. وكان يسترسل في الكلام بعض الأحيان فتفلت منه من غير وعي جمل وكلمات بدأت تكشف لي شيئا من سره. وكان ينشد لي كثيراً من المواويل الريفية في الحب والتشبيب بالنساء وكان إذا لفظ كلمة (الغيط) لفظها مفخمة منغمة واتسعت عيناه ولمعت بوميض غريب. واتسع صدره وتمددت طاقتا أنفه وهو يستنشق في شغف الهواء الذي يحسبه هواء الريف. ثم يعقب ذلك تنهد حار عميق، ومناجاة طويلة لصفارته وباغته ذات يوم بقولي:

obeikandi.com

- اقسم بالله لقد اكتشفت سرك يا شيخ (عفا الله)!
فارتعد مذعوراً. وأتممت كلامي:
- انك فلاح من الريف
فنظر ألي بحيرة وقال بعد تردد:
- وهل أستطيع أن أنكر (أصلي)!
- وانك تتألم من حب دفين.
فأمسك بيدي وشد عليها، وقال:
- اسكت يا سيدي، اسكت:
- وانك ارتكبت معصية كبرى، وتريد التكفير عنها
فامتقع وجهه ونظر ألي محملقا، وقال:
- أعالم سري. .؟ أعالم سري؟. .
وأخذت استدرجه في القول حتى لان. وبدأ يروي لي قصته كالآتي:

لم اكن أدعى بالشيخ (عفا الله) فيما مضى، بل كنت اعرف (بسرحان) وهو اسمي الحقيقي، وكان لي أخ يدعى (محمد الرخ) كان إماما لمسجد القرية التي نشأت فيها. وكان قد تجاوز الأربعين، بينما كنت في السابعة عشر. أو كنت اعتبره كأبي واحبه حبا عظيما وكان هو الآخر يحبني كابن له: وقد حفظني القرآن وعلمني أصول الدين وأشركني معه في خدمة المسجد. وكنت قد بدأت أتعلم الصفير في ذلك العهد على شيخ

obeikandi.com

طريقة مجذوب يجيد التوقيع على الصفارة وإنشاد القصائد الصوفية. ولما برعت في الصفير كان يلتف حولي على باب الجامع. بعد العشاء. جمع كبير من الفلاحين يستمعون إليَّ.

وكانت زوجة أخي قد توفيت منذ عام، فتزوج بفتاة في الخامسة عشر لم تقع عيني على املح منها. لها جاذبية غريبة سحرتني وخبلت عقلي. رأيتها للمرة الأولى فلم أتمالك أن أحببتها حبا تملك على جميع مشاعري وكبلني بالرغم مني بقيود ظالمة لم استطع التخلص منها. وخجلت من نفسي ومن أخي واعتبرت هذا الحب الشائن اكبر خيانة لذلك الشخص الذي وهبني حنانه وإخلاصه وثقته، وأردت أن أحطم هذه العاطفة الذميمة، ولكني لم استطع فكتمتها في قلبي ولم أبح بها الا لصفارتي! فقد كانت عزائي الوحيد في نكبتي.

وكنت أتعمد أن لا أخلو بزوجة آخي أتحاشى أن أكلمها إلا في الأمر الضروري. وكنت امكث بعيدا عن الدار في فحمة الليل، أناجي حبي بالحان الشكاية والنوح. وحدث مرة أن كنت في موضع خلوتي غير بعيد عن الدار، اصفر في شبه غيبوبة، وأنا ملتذ بآلامي إذ شعرت بإحساس غريب فرفعت رأسي.

والتفت حولي فوجدت (هنية) زوجة آخي جالسة غير بعيدة عني تنظر ألي في صمت وخشوع. فذعرت وقمت من فوري وأنا أقول:

- أنت هنا..؟

- منذ برهة وجيزة... إني أحب صفيرك وأشعر عند سماعه برغبة في البكاء.

وتحركت أريد الهرب، فأمسكت بطرف جلبابي وقالت:

- لماذا لا تريد أن تجلس؟

فصرخت بالرغم مني قائلا:..

- دعيني!

فنظرت إليَّ دهشة ولم تتكلم. ثم قالت:

- ما الذي يدعوك إلى كرهي. لماذا تهرب مني..

وبغتة أجهشت بالبكاء. فشعرت كأن قلبي يتمزق وأن دماغي يحترق. ثم هبطت عليها دفعة واحدة، وأخذتها بين ذراعي، وأنا أقول:..

- أنا أكرهك يا هنية!..

وأنحنيت عليها أشبعها ضما وتقبيلا معبرا عن حبي الكبير بأحر العبارات.. وكانت الفتاة مستسلمة إليَّ في نشوة وغرام!.

وبينما نحن على هذا الحال إذ طرق سمعنا أصوات من بعيد فصحونا من حلمنا اللذيذ. ورأينا على جسر الترعة أشباحا تسير متمهلة. فاضطربت هنية وهمست في أذني قائلة:

هذا أخوك عائد مع المستأجرين.

ثم قامت دفعة واحدة وقالت:

- سوف أسبقه إلى الدار، متخذة طريق الغيط.

وقامت تعدو كالظبي المذعور، وأنا أراقبها في لهفة حتى ابتلع الظلام شبحها الجميل! وسرت أنا إلى الدار متمهلا في طريق الجسر فوجدت أخي قد جلس أمام الطعام منتظراً حضوري، ولما رآني صاح بي مداعبا:

أيصح أن تتركنا ننتظرك. تعال يا ملعون وشاركنا الطعام!. أريد أن أقص عليك كيف أجْرت الفدادين هذا العام بقيمة لم أكن أحلم بها.

وجاءت (هنية) ووضعت العيش أمامنا. وجلست مبتعدة قليلا عنا. وبدأنا نأكل. وكنت منهمكا في تفكيري، لا أفهم شيئاً مما يرويه لي أخي، مع تظاهري بالإصغاء إليه. وكنت أرفع بصري بين وقت وآخر نحو (هنية) فأجدها مسبلة الأجفان في شبه ذهول تأكل بحركات ميكانيكية، ووجهها ممتقع. وحدث مرة أن رفعت نظرها إليّ واشتبكت عينانا. وخيل لي أن وجهي يدنو من وجهها، وأن شفتينا على وشك التلاقي. وبغتة سمعت صرخة اهتزت لها الدار فارتعت، وتنبهت لنفسي فرأيت (هنية) تشهق بالبكاء قائلة:

لا أستطيع! لا أستطيع!

وهب أخي فزعا نحوها. وضمها إلى صدره وهو يقول:

- ما لك يا هنية؟. ما لك؟.

ليس لي رغبة في الأكل. دايخة. أريد أن أنام.

- قومي يا حبيبتي لتستريحي. .

وقامت متجهة نحو حجرتها، وهي معتمدة على ذراع أخي. وكنت شاهد هذا المنظر وأنا في شبه خبل. أشعر بأني قد تحجرت وصرت جزءاً من الأرض التي كنت أنا جالس عليها.

وعاد أخي بعد هنيهة، وقال لي:

- المسكينة أجهدت نفسها اليوم في أعمال الدار.

وكنت لا أطيق أن أنظر إلى أخي في هذه اللحظة فقمت من فوري ووجهتي الباب. وسألني أخي؛

- إلى أين؟

- إلى الجامع. أريد أن اصلي العشاء. ثم أقفله أعود.

وخرجت أعدو إلى مأواي المختار (الذي قابلت فيه (هنية) منذ وقت قريب) وارتميت على الأرض أمرغ وجهي في الموضع الذي كانت جالسة فيه، وأنا أنشج نشيجا حارا وأمضيت ليلتي هناك، وأنا لا يهنأ لي مضجع. أبكي وأغفو وأحلم، ثم أصحو برجفة تزلزل جسمي، وكان يتراءى لي شبح أخي في يقظتي ونومي. يحوم حولي يريد أن يقتلني، فكنت العنه بأشنع اللعنات. وفي الفجر غلبني نعاس عميق، لم أصحو منه

الا عند الظهر. وفتحت عيني وأردت النهوض فخانتني قواي، إذ كنت أشعر بآلام شديدة وضعف هائل.

فجلست مستندا إلى جذع شجرة خلفي وأخذت استعيد قواي شيئا فشيئا. وكان الغم يخيم على قلبي، وشعور الندم الشديد يكتسح نفسي. فقمت مهرولا نحو الجامع، واعتذرت لأخي عن تأخيري بمختلف الأعذار ثم هبطت على يده اقبلها، وأنا أقول له:

أني احبك يا أخي!. واقسم بالله أني احبك حبا لم يضمره ابن لأبيه. أريد دائما أن أنال رضاك وعفوك. قل لي أتحبني!.

فأجابني:.!

- ما هذا الكلام يا سرحان. هل رأيت مني غير الحب الكبير؟. أنت ابني بل أنت افضل من ابني:

ونظرت إلى أخي فوجدت آيات الإخلاص مرتسمة على وجهه. فاندفعت أقبل يديه من جديد؛ وأنا أبكي بصوت عال. وانتابتني نوبة عصبية شديدة، فارتميت على الأرض في حالة تشبه الصرع. ولما أفقت وجدت نفسي ممددا في ركن من أركان الجامع وأخي بجانبي مهموم الخاطر من اجلي؛ يمرضني ويحنو عليّ.

ومضى أسبوع وأنا لا اقصد الدار الا في أوقات قليلة. وكثيرا ما كنت أتناول الطعام في الجامع، وأنام ليلا فيه، ولو استطعت لأمتنعت تماما عن الذهاب إلى المنزل. ولكني كنت أحتاط للأمر حتى لا يشك أخي في سلوكي. وكنت أجاهد ما أمكن في سبيل ضبط عواطفي وأكلم (هنية) أمام أخي كلاما عاديا متحاشيا دائما النظر إليها. وإذا تصادف وخلونا نحن الاثنان برهة صغيرة ظللنا صامتين منكسي الرأس وإذا تقابلت الأعين اهتزت منا الأجسام كأن مستها الكهرباء.

ومضت الأيام والنار تأكلني أكلا، أنام نوماً سيئاً، وأقضي يقظتي في شبه أحلام مشوشة. وإذ أديت صلاتي أخطأت الأداء وكان قلبي مسرحا لمختلف الاحساسات المتباينة، الغضب والرحمة، والكفران، والتوبة والحب والبغض تتطاحن كلها باختلاط.

وتركت الدار (يوماً) بعد منتصف الليل بقليل وخرجت أعدو كالوحش المطعون وأنا أردد:

- أنه معها في الحجرة. إنها له. . وهو يتمتع بها. . .

وهمت على وجهي لا أدري أي وجهة اقصد. وأخيرا وجدت نفسي أمام الجامع فدخلته بدون وعي وارتميت على الأرض أعض يدي واضرب رأسي في الحائط، وأنا ما زلت أردد قولي: انه معها في الحجرة. . إنها له. وهو يتمتع بها. . .

openkanadi.com

وبينما كنت على هذه الحالة، شعرت بيد وضعت على كتفي. فالتفت مذعورا. فإذا (هي) أمامي. . هي (هنية) في تلك الساعة الموحشة من الليل، وفي ذلك المكان المنعزل. فأخذتها بين ذراعي بلا كلام واحتضنتها بوحشية وأنا أهذي.

وأمضيت معها ساعة غرام عنيفة، من أشهى ساعات الوجود. وأقسم لك انه ليس على وجه الأرض منذ خلقت الدنيا شخص نال مثلي نعيم تلك الساعة. إنها ساعة تساوي أعماراً بأكملها.

وبعد ذلك نمنا متعانقين. . وتنبهت فإذا الباب يقرع. وإذا ضوء الشمس يغمر المكان، وسمعت صوت أخي يقول:

- افتح يا سرحان

فوجدتني أجيب بلا وعي:

- سأفتح في الحال

وكان للجامع نافذتان مشبكتان بالحديد. وليس ثمة مخبأ تستطيع أن تختبئ فيه هنية أو منفذ تنفذ منه إلى الخارج. فأختبل عقلي. ولكن خاطراً مر برأسي فقلت لها هامسا!

- أصعدي إلى السطح. . أصعدي سريعاً

فقامت هنية وصعدت في الحال إلى السطح؛ وقمت أنا إلى الباب ففتحته. وتظاهرت بالفتور الشديد ودخل أخي وعليه شيء من مظاهر الغضب. وقال:

- أما زلت تنام في المسجد يا سرحان؟ اليس لنا دار تسعك معنا؟

- يحلو لي الآن أن أتعبد في المسجد حتى مطلع الفجر!. .

وجلس أخي صامتا. وبعد برهة تكلم بلهجة قلقة.

- لقد استيقظت من النوم؛ فلم أجد هنية بجانبي. وقد بحثت عنها طويلا في الدار فلم أعثر عليها. .

فارتجفت. ولكني تغلبت على ضعفي وقلت:

- لعلها تكون قد خرجت لتملأ جرتها من الترعة

- ربما. . إنما. . . .

ثم ابتلع ريقه وتمتم بكلمات لم أفهمها وقام وقال:

- هيا نصل الصبح!

وقمنا إلى الصلاة. ولكن أي صلاة هذه التي أديتها في ذلك الوقت. كانت صلاة للشيطان لا لله! وانتهت الصلاة. وبدأ الناس يفدون على الجامع وأصبحت في حالة يرثى لها. وأخيراً خرج أخي عائداً إلى الدار. وما كاد يفعل حتى انسللت صاعدا إلى سطح الجامع لأدبر حيلة لهرب هنية. وما كانت أشد دهشتي حينما رأيت السطح خالياً. ودرت فيه وأنا كالمخبول، ابحث هنا

obeikandl.com

وهناك. وشعرت بإحساس غريب يجذبني نحو حافة السطح. وما كدت أشرف منه إلى الأرض حتى صرخت مرتاعاً. ووجدت نفسي بعد لحظة على الأرض ولا أدري كيف نزلت. وكانت هنية ملقاة بجوار الجدار تئن أنينا خافتا فدنوت منها وأنا في جزع ولهفة وأمسكت بها وسألتها عما أصابها ففتحت عينيها بصعوبة وقالت:

- لقد انكسرت يا سرحان. انكسرت!

وكانت تعض على شفتيها محاولة كتم تأوهاتها!

فاحتضنتها وأنا أواسيها وأشجعها. وسمعتها تقول:

- آلامي لا تطاق.. أني أموت!

وحملتها بكل عناية واحتراس. وأنا أكاد اجن من الحزن، وذهبت بها إلى دار أم عبد الجليل. وكانت امرأة وفية ولي محبة. وأخبرتها بشيء من الحقيقة ورجوتها أن تذهب إلى أخي لتبلغه خبرا ملفقاً. فقامت المرأة من فورها إلى داره.

ونقلوا هنية إلى دارنا وقد أشاعت أم عبد الجليل أنها سقطت من سطح منزلها بينما كانت تأتي بوقود لها!

ومضى يومان وهنية تعيش في أتون متقد من آلام لا يتصورها العقل. أما أنا فكنت أذهب إلى زريبة المواشي، وأحكم أقفالها عليّ. ثم انهال على وجهي باللطم. وأنفجر في نواح طويل وأنا أقول:

- أنا سبب كل هذا!. أنا الذي يجب أن يعذب!. أنا الذي يجب أن يموت!

وماتت هنية في اليوم التالي ودفناها في قرافة القرية باحتفال بسيط. أما حالتي يوم وفاتها فقد اعتراني خبل غريب، فلم أصدق أنها ماتت. وكنت أؤدي عملي الذي كلفت به في مأتمها ببساطة وهدوء، بل كان يعتريني بعض الأحيان نوبات ضحك يعقبها خمول ووجوم. ولكن بعد أيام بدأت أشعر برد فعل شديد، فأخذت أهيم في الغيطان؛ وأختبئ في الذرة، وأنا أبكي وأندب بلا انقطاع. وأخيرا هدأت حالتي نوعا فعدت إلى عملي في الجامع. ولكن مرآي ذلك الجامع كان يزيد شجوني وعذابي. فتتمثل أمامي جريمتي كلما وطئت عتبته ويخيل لي أني أسمع صوت سقوط جسم من أعلى السطح إلى الأرض. فتعتريني قشعريرة وأخبئ وجهي في يدي وأجهش بالبكاء.

لقد عملت المستحيل لكي أضلل أخي؛ وأبعد شكه من ناحيتي وتحملت أكبر العذاب في سبيل إخفاء جرمي. ولم اكن أجسر على النظر إليه. وكان يخيل إلي أنه يرفع يده في وجهي يريد سحقي.

ومضت الأيام وسري ينمو ويتضخم في قلبي فأشعر بثقله الهائل. ويخيل ألي في كل وقت إن قلبي يتمزق وان السر

obeikandl.com

يطير منه ويعلن إلى الملأ فضيحتي. وكانت أيام عذاب لا أظن عذاب الجحيم يفوقها.

وفي ليلة عقب صلاة المغرب خرجت لأروح عن نفسي قليلا فقادتني قدماي، بدون شعور، إلى المكان الذي سقطت فيه هنية بجوار حائط الجامع. وبغتة قابلت أخي وجها لوجه ولا أدري ما لذي أرسله إليّ في هذه الساعة وفي هذا المكان. أهي المصادفة أم شيء آخر. لا ادري!. ووقفنا أمام بعضنا بالقرب من ذلك الجدار الرهيب. وشملنا الصمت برهة. وبغتة وجدت نفسي أصرخ وأقول:

- لا تقربني!. لا تقربني!.

واندفعت أجري كالمجنون أهيم على وجهي. وكان هذا آخر عهدي بأخي وبتلك الديار!. وأخذت منذ ذلك الوقت أطوف المدن، وأعيش عيشة الطريد الشريد.

ثم أطرق الشيخ عفا الله صامتا. وشاهدت دمعة تتحدر في بطأ على خده. فقلت وأنا شديد التأثر بما سمعت.

- لماذا لا تعود إلى صلاحك، وتطلب مغفرة الله.

فرفع عينيه وقال:

- لقد تألبت عليْ الأقدار. وسأظل حتى النهاية ذلك المتمرد العاصي.

ثم سحب صفارته من عبه في هدوء وأخذ يوقع عليها لحنا شجيا فيه معنى الصبابة والتضحية. وكان منتشياً، بلحنه يتذوق آلامه الدفينة في شبه غيبوبة مسكرة.

obeikandi.com

الرجل صاحب الكلب

حدثني الراوي قائلاً:

عندما كنت طالباً في مدرسة الزراعة بالجيزة كنت أتردد في أوقات فراغي على قهوة صغيرة بالقرب من الشارع العمومي يجري بجوارها جدول صغير وتتهدل فوقها أغصان شجرة عتيقة. وكنت أعتبرها حلقة الاتصال بين الحضر والريف أو بين المدنية والحياة الساذجة البدائية. فبينما تكون جالساً في مقعدك البسيط تشرب القهوة في هدوء وتصغي إلى

خرير الماء وتشم رائحة النبات إذ بك تسمع دوي ترام أو سيارة ويمتلئ أنفك برائحة البنزين والتراب.

وكان يتردد على هذه القهوة رجل بدين الجسم كروي الوجه بأنف أفطس وعيون صغيرة يلبس بدلا من المعطف حرملة من اللون الأزرق الكالح ويلف رأسه بشال قديم مهلهل.

وكنا في ذلك الوقت على أبواب الشتاء. وكنت ألاحظ عليه مظاهر الجربعة. واعتقدت أنه من أرباب المعاشات الفقراء.

وأذكر أنني لم أذهب إلى القهوة مرة واحدة ولم أجده. أراه دائماً في ركنه المعهود بجوار باب القهوة منتفخاً في جلسته يدخن النارجيلة ويحتسي القهوة ويزعق بين فترة وأخرى على الخادم يصدر إليه أوامره الممضة. يصحب معه دائماً كلباً أسود بشع الهيئة من فصيلة الأرمنت. يزعج القهوة بنباحه الثقيل. كان سيده يبالغ في تدليله والاعتناء به. ويكلمه ببعض كلمات إنجليزية بلهجة سقيمة لا تتعدى قوله: كام هير جيمي كام هير ماي دير.

ولا أدري ما الذي دفعني إلى أن أهتم بهذا الرجل وكلبه وأدقق في ملاحظتي إياهما. مع نفوري منهما.

وذهبت مرة إلى القهوة فوجدت عويساً ماسح الأحذية يتشاجر معه. وكان الرجل يشتم الغلام بصوته العريض الوقح

وهو منتفخ الأوداج محمر العين يبصق أماه بصقات متوالية. ورأيت الكلب ينبح ماسح الأحذية بشدة ويجذب بأسنانه طرف ثوبه. فتحاشيت التدخل بينهما وقصدت إلى مكاني بجوار الجدول ومعي كتاب الزراعة المصرية لأذاكر فيه. وجاء صاحب القهوة فحسم الخلاف وشتم عويسا وأرضى الأفندي ببعض كلمات لا تخلو من تملق. وترك الكلب ثوب الغلام وذهب إلى سيده فنظر إليه مليا وهو يبصبص بذنبه ثم تمدد تحت أقدامه ونام.

وجاءني عويس يمسح لي حذائي كالمعتاد فمددت له قدمي في حركة آلية غير ملتفت إليه وأنشغل الغلام بالمسح وأنا بالتفكير وبعد برهة خاطبت عويسا ووجهي لا يفارق الكتاب..

- من يكون هذا؟

فأجابني وهو منهمك في عمله.

- واحد حكيم لا طلع ولا نزل. يدعي أنه كان حكيمباشي في الجيش في الزمن الماضي.

- والآن؟

- على المعاش

ثم رفع رأسه إلي وقال:

تصور يا بيه أنه يريد أن يعطيني قرش تعريفة واحد في مسح حذائه ووضع شريط جديد له. وأي جزمة هذه التي مسحتها. ربنا لا يوريك أؤكد لك أن الورنيش لم يمسها منذ أن كان جنابه في الجيش..

قرش تعريفة واحد نظير مسحة وشريط جديد. الله الغني يا سيدي.. هذا خلاف الخدمات التي أؤديها له بدون مقابل. ولو كان شخصاً فقيراً لقلنا نخدمه لوجه الله ولكنه رجل عاكم. عاكم تمام.

وسمعت الحكيم باشي يبصق بشدة على الأرض فخفف عويس من حدته وهمس قائلاً:

- تصدق بالله، لو ذهبت إلى بيته لظننت انك في مزبلة أو مربط بهائم..... لم كل هذا والدنيا أخرتها موت. فضحك واردم على هذه السيرة..

وغبت عن القهوة بضعة أيام. وبينما كنت مرة في الترام منهمكاً في قراءة (البلاغ) إذ شعرت بشخص يدخل العربة، وكانت مزدحمة بالركاب، ويحشر نفسه بين الجالسين وسمعت همهمة استياء من كل ناحية. ورفعت بصري لأرى من الداخل فوقع بصري أول وهلة على كلب اسود ضخم بشع الهيئة عرفته على الفور. ورأيت أمام مقعدي الحكيم باشي يمسح وجهه المحتقن المعقد ويشد حرملته على أكتافه ويدفع

جاره وهو يدمدم. وتلاقت أعيننا. وشعرت بأنني ابتسم له. وشاهدته يجيبني مجاملة بابتسامة سطحية خاطفة. وبعد لحظات قال لي مندفعاً:

- يدفع الواحد منا ستة مليمات لهذه الشركة الملعونة ليحظى بمثل هذه الجلسة المرهقة. نحن آدميون ولسنا بهايم حتى يحشروننا هكذا كأننا في عربة للحيوانات. لماذا لا يزيدون عربة على كل قطار في مثل هذه الأوقات. أقسم بالله ان سوارس الذي تدفع فيه ثلاثة مليمات فقط أحسن ألف مرة من هذا الترام.

فوافقته موافقة تامة. وأخذت أذم له الشركة بدوري. فظهر على وجهه الارتياح وأخذ يناقلني الحديث بلهجة ودية ومن غير تكلف كأنه يعرفني منذ أعوام، وقال:

- لم تحضر إلى القهوة منذ أيام

- كنت مشغولاً جداً. لقد هجمت علينا الدروس.

- إيه يا بني لو كنت معنا في الجيش لأستصغرت من شأن مشاغلك. . كنت أنا لا أجد الوقت الكافي لأتناول كوب اللبن في الصباح.

- حضرتك خدمت في الجيش مدة طويلة؟

فأجاب بلهجة متزنة وهو يعبث بسلسلة ساعته. .

- ٤٥ سنة، ٤٥ سنة وأنا أعيش في الخيام وعلى ظهور الجياد. أضمد جروح الجرحى وأعنى بالمصابين. ثم أخرج بعد هذه الخدمة الطويلة العريضة الشاقة بمعاش لا هو في العير ولا في النفير. . . لا مكافأة ولا يحزنون. .

ثم مال علي وهو يبتسم وقال:

- ألم تسمع المثل القائل: آخر خدمة الغز علقة.

وكان قد خلا مكان بجواره فنظر إلى كلبه الذي كان ممدداً تحت أقدامه وقال له وهو يفرقع بإصبعه. .

- كام هير جيمي. كام هير ماي دير.

وأشار له إلى المحل الخالي، فقام الكلب وبعد أن تمطى وتثاءب في هيئة شنيعة قفز بجوار سيده والناس يرمقونه بالنظر الشزر. وألتفت إلي الحكيم باشي وقال وهو يلاطف كلبه. .

- لم أر في حياتي كلباً وفياً كجيمي هذا. أنه إنسان وليس بحيوان. لقد استغنيت به عن البنين فهو أبني وعن الخدم فهو تابعي الأمين. وعن الحراس فهو حارسي الذي يبذل دمه في سبيلي. أتصدق أنني لا أعاشر سواه في منزلي.

ثم نظر إلى كلبه وقال:

- أوه جيمي أي لاف يو فري ماتش

وكان بجواري شيخ معمم فسمعته (يمصمص) بشفتيه ويتمتم قائلاً:

- لله في خلقه شؤون!

ووقف الترام على إحدى المحطات ودخل العربة محمد أفندي زكريا الموظف ببنك الكومرسيال الإيطالي فسلم علي في بشاشة. ثم التفت إلى الحكيم باشي وقال:

- أهلاً أسعد بك. في غاية الأشواق يا حبيبي.

وتحدثنا برهةً في العموميات، ثم رأيت أسعد بك الحكيم باشي ومحمد أفندي زكريا يفتحان باب البحث في المسائل المالية. فسكت وأصغيت لهما. وأخذا يتعمقان قليلاً قليلا فلم أعد أفهم من كلامهما شيئاً. وكانت أمثال الكلمات.. الكامبيو والبورصة وسندات الشركة البلجيكية وأسهم البنك العقاري والرنت الفرنساوي تطن في أذني طنيناً مزعجاً، وارتسمت على وجه أسعد بك أشد مظاهر الاهتمام فوجدت عينيه تحملقان في وجه محدثه حملقة الجائع الشره، وطاقتي أنفه تتسعان كأنهما تستجديان الهواء... وأخيراً وصلنا الجيزة فسلم أسعد بك علينا ونزل لأنه كان يسكن في هذه البلدة. أما أنا ومحمد أفندي زكريا فتابعنا ركوبنا إلى الأهرام إذ كنا نرغب في تناول الشاي في (مينا هاوس) وملت على محمد أفندي وقلت له:

Obeikandi.com

- إن لصاحبك باعاً طويلاً في الأمور المالية.

- إنه يا عزيزي يلعب بالجنيهات في سوق المضاربة كما تلعب الأولاد (بالبلى)

- وهل يكسب؟

- لم أسمع مرة واحدة أنه خسر.

ومرت الأيام وكثرت مقابلتي لأسعد بك في القهوة وتوثقت بيني وبينه روابط الصداقة. وأتضح لي أنه شخص غير مزعج كما توهمت قبل معرفتي إياه. فكان إذا رآني في ركني المعهود منكباً على كتابي أذاكر درسي أحترم عملي ولم يفتح فمه بكلمة. أما إذا لاحظ أنني لا عمل لي دعاني إلى الجلوس معه. ولا أذكر أنه أكرمني بفنجان قهوة. أو قدم لي سيكارة واحدة. أما حديثه فكان سخيفاً ولكنه مسل للغاية. معظمه حكايات عن حياته الماضية في الجيش ونوادر عن كلبه لا تخلو طبعاً من مبالغات ومغالطات. وكان إذا تكلم عن كلبه لمعت عيناه بوميض غريب وخيل إليك أنه يتكلم عن ابن وحيد له وهبه كامل محبته وحنانه.

وتغيبت بضعة أيام عن القهوة ثم عدت إليها فكان أول شئ لاحظته هو أن أسعد بك غير موجود. ولما جاءني غلام القهوة سألته عنه فلم يفدني شيئاً. وبعد قليل ظهر عويس

ماسح الأحذية. وكان مسروراً يخبط بظهر فرشته صندوقه فسألته:

- ما الخبر يا ولد؟

- خبر عظيم جداً يا بيه.

- لقد أخذوا كلب أسعد بك في عربة الكلاب.

- يا شيخ!

- شاهدت ذلك بعيني رأسي.

ونالني شئ من الأسف. ولكنني لم أهتم بالأمر كثيراً. وأعتقدت أنني سأرى في الغد صديقي وكلبه يحتلان ركنهما المختار في القهوة.

وبعد انقطاعي بضعة أيام ذهبت إلى القهوة فوجدت أسعد بك وبحثت بعيني عن الكلب فلم أجده. وكانت عينا صديقي مربدتين حائرتين ووجهه محتقناً. وسلمت عليه فسلم علي في اقتضاب وصمت فلم أشأ أن أثقل عليه. وقصدت إلى مكاني وفتحت كتابي وبدأت دراستي ولكنني ما كدت أفعل حتى سمعته يتكلم في لهجة شرسة وكأنه يتحدى إنساناً أمامه قائلاً:

يأخذون الكلب ويطلبون مني جنيهاً مقابل إطلاق سراحه! جنيه! هذا نصب، نهب.. إخص على دي مصلحة.

وبصق بصقة كبيرة. ثم أتم كلامه...

obeikandl.com

-.. مع أني أفهمتهم أني حكيم.. حكيم باشي الأورطة التاسعة التي قهرت العصاة في الأبيض ودارفور. رجل مقامي معروف وماضي مفعم بجليل الأعمال. مصلحة دون! لا تعرف أصحاب المقامات.. إخص..!

وبصق بصقة أخرى. وكان يتكلم دون أن يلتفت ناحيتي. ولكني كنت متأكداً أن الكلام موجه إلي إذ لم يكن في القهوة غيرنا. فرأيت من باب المجاملة أن أعير حديثه اهتمامي. وقلت:

- جميع مصالح الحكومة بايظة.

فاحتد في كلامه وهو ينظر أمامه دائماً وقال:

- الا هذه المصلحة. إنها ليست بايظة فقط. إنها غير موجودة.... أتصدق أنهم يرفضون شهادتي الرسمية بأن الكلب غير مكلوب وأنه ليس من الكلاب الضالة، ويقولون أن الإجراءات يجب أتتبع مجراها. إجراءات؟ هه!.. سأريهم كيف تتخذ أمثال هذه الإجراءات معي ومع كلبي. سأريهم..!

وضرب بشدة على المائدة والتفت إلي هذه المرة وعيناه تشعان باللهيب وقال:

- لقد أرسلت عريضة اليوم إلى وزير الحربية لتخلية سبيل كلبي في الحال.. في الحال.

فأجبته على الأثر.

- حسناً فعلت.

وفي الغد سافرت مع فرقة من طلبة المدرسة إلى الصعيد وقضينا هناك أسبوعاً كاملاً نتنقل بين ربوعه متفرجين على آثاره العظيمة. وفي اليوم التالي لعودتي إلى القاهرة قصدت إلى قهوتي المعروفة. فرأيت عويسا جالسا القرفصاء على الأرض بجوار إحدى الموائد وأمامه صندوقه ينتظر زبائنه. فناديته وسألته على الفور.

- ماذا جرى لكلب أسعد بك؟

فابتسم ابتسامة عريضة وقال:

- تعيش أنت!

- قتلوه؟

- منذ أربعة أيام.

ألم يدفع أسعد بك المبلغ؟

- يدفع المبلغ! انه يرضى أن يدفع لهم عينيه! ولا يتجاوز لهم عن الجنيه.

وشاهدت أسعد بك آتيا صوب القهوة يتوكأ على عصاه الغليظة ويسير في ثقل وإعياء، ولما اقترب مني ابتسم لي ابتسامة هزيلة وسلم علي ثم جلس. وأشار إلى المقعد الذي أمامه وقال:

- تفضل اجلس

جلست وبدأنا نتحادث في أمور تافهة. وكانت لهجته مهملة ونظراته فيها بعض الشرود. ولم يتكلم بكلمة واحدة عن جيمي فعلمت أنه لا يريد الخوض في هذا الموضوع. ثم خيم علينا صمت ثقيل فاستأذنت وقصدت إلى ركني.

ومنذ ذلك الحين اختلت مواعيد أسعد بك ولم أعد أراه دائماً في القهوة كلما ذهبت. وغير عادته في فنجان القهوة السادة الذي كان لا يحيد عنه ولا يزيد عليه واستبدل به بضع كوؤس من العرق. وكان كلما ثارت الصهباء في رأسه اندفع يتكلم في إسهاب ممض وبصوت مرتفع كأنه يصرخ أو يشتم. وكانت موضوعاته دائماً لا تخرج عن سبه مصلحة الطب البيطري وسب العالم كله على السواء. كان يقول دائماً:

- الدنيا كلها نهب في نهب. إخص بلا قرف. وبدأ يضيفني على شرب الزبيب معه ويقول لي:

- لا تخش ضرراً. أنا حكيم. إن الزبيب مقو للدم وفاتح للشهية. أحسن المشروبات كلها.

وأصبح مجلس أسعد بك لا يطاق. فلم أكن أنعم بتلك المحادثات المسلية. ولم يكن يتركني أذاكر دروسي في هدوء. بل كاندائماً يقلقني بصياحه المزعج ويضطرني إلى الإنصات له وتحبيذ كلامه. وكان إذا رآني مقصراً في الالتفات إليه جاء إلى

مائدتي ونقل مشروبه إليها واحتل مقعداً بجواري وبدأ يسح بشكاياته وشتائمه.

وحدث مرة أن جاء صاحب القهوة بحساب الشهر (وكان من عادة أسعد بك أن يدفع الحساب شهرياً) فأخذ الورقة من يد الرجل وألقى عليها نظرة عابسة ثم صاح في وجهه:

- مائة قرش؟ جنيه! أما لصوص صحيح! لن أدفع هذا المبلغ ماحييت ودعك الورقة ورماهافي وجه صاحب القهوة. وأراد الأخير أن يتفاهم معه في لطف فأقترب منه ومعه الحساب وأخذ يوضح له عدد الطلبات التي طلبها. فدفعه أسعد بك بشدة وصاح..

- اذهب من أمامي لن ادفع شيئا. كلكم لصوص أولاد كلب. فأحمرت عينا صاحب القهوة وقال:

- اللصوص وأولاد كلب يا حبيبي هم الذين لا يؤدون ما عليهم.

- اخرس! أتعرف من الذي تكلمه؟ أنا أسعد بك حكيم باشي الأورطة التاسعة في الجيش المصري.

- وماذا يهم؟ أنا أريد نقودي. ليس هذا الجنيه كجنيه مصلحة الطب البيطري الذي لم تدفعه إنقاذاً لكلبك. هذا جنيه ثمن مشروبات جررتها من محلي..

ورأيت سحنة أسعد بك قد انقلبت وصارت كسحنة النمر الهائج وقال وصوته يرتجف:

- ماذا تقول يا وقح؟ جنيه الطب البيطري! أتظن أنني قد بخلت بالجنيه في سبيل إنقاذ كلبي؟ أتجرؤ على هذا القول يا لعين؟ أنا أرضى أن ادفع مائة جنيه لا جنيها واحداً من أجله. . ولكنني لا أدفع للصوص أولاد الحرام، كلكم تستحقون ضرب الصرم، ورأيته يدس يده المرتجفة في جيبه في حركة شاذة ويخرج ورقة مالية من ذات المائة قرش وينهال عليها تمزيقاً في وحشية غريبة ويقول:

- أتستطيع أن تقول إنني لا أستطيع أن ادفع جنيهاً. .

ثم قام وأنشب أظافره في رقبة الرجل. وقامت بين الاثنين معركة حامية استدعيت من أجلها الشرطة.

وساءت أحوال أسعد بك فلم أعد أراه إلا مخموراً رث الهيئة ممزق الملابس. قوي الشبه بهؤلاء المشردين مدمني المخدرات الذين تراهم في الطرق يستجدون المارة. وكان لا يسكت لسانه عن النقود وبالأخص عن الجنيه الذي لم يدفعه إنقاذاً لكلبه، وكان يؤكد لي في حماس غريب أنه لم يدفع هذا الجنيه نكاية في مصلحة الطب البيطري وليفهمهم أنه ليس مغفلاً أو ضعيفاً. وكان يروي الحكاية لكل من يقع عليه بصره في القهوة أو في الطريق وهو يصيح ويهدد ويشتم. وإذا لم يجد

من يكلمه رأيته يحدث نفسه محتداً وهو يلوح بيده في حركات شاذة.

وانقلب من شحيح متكالب على المال إلى مسرف متلاف لا تعرف يمينه ما تنفقه شماله. وسمعت أنه كثيراً ما يذهب إلى مصلحة الطب البيطري ليفدي الكلاب الضالة ويخرج لها رخصاً بمبالغ لا يستهان بها. وكان يحرضني دائماً على التبذير ويقول:

- اصرف وبحبح على نفسك.

وقابلت مرة محمد أفندي زكريا الموظف ببنك الكومرسيال فروى لي أخباراً مزعجة عن أسعد بك قال: أنه يضارب الآن بجنون ويخسر خسائر فادحة.

وحلت الإجازة السنوية وانقطعت عن زيارة القهوة ثلاثة أشهر كاملة ولما عدت إليها رأيت كل شئ فيها لم يتغير. وكانت مائدتي المختارة في موضعها بجوار الجدول تظلها أغصان الشجرة العتيقة. فكأنني لم أفارقها إلا منذ ثلاثة أيام. واستقبلتني الوجوه التي أعرفها كل بابتسامته الخاصة. وألتفت حولي مشرق الوجه وأنا أقول:

- كل شئ كما هو!

وبغتة قلت لعويس الذي كان يمسح مقعدي في هرج وسرور ويهيء نفسه لمسح حذائي..

- أين أسعد بك؟

فتوقف عن عمله ورفع بصره إلي وقد غابت ابتسامته وانقطع ضجيجه المرح وقال بلهجة قابضة:

- ألم تسمع عنه شيئاً؟

- كلا

- لقد أرسلوه إلى المارستان. كانت حالة المسكين في المدة الأخيرة عبرة. وكنت أنا الذي أعتني به.

- ما هذا الكلام؟

- الحقيقة ما أرويها لك.

- وهل يمكن أن نزوره في المارستان؟

ومد عويس صندوقه تحت قدمي وبدأ يمسح في هدوء. وقال في لهجة غريبة:

- كلا يا سيدي لا تستطيع أن تزوره... لن تراه أبداً..

ونكس رأسه... فنكست رأسي أنا أيضاً وبدأت أستغرق في تفكيري الحزين.

obeikandl.com

الباب المقفل

ذهبت إليه، وسألته أن يعطيها الكتاب الذي وعدها به فوقف هنيهة يفكر: أين وضعه؟... ثم تمتم:

لعله في حجرة البيان!

وتقدمها إلى الحجرة، فدخلاها. إلا أنها تنبهت إلى شأن غير عاديّ بدر منه. لقد أقفل الباب بالمفتاح!... فتسارعت دقات قلبها، واختلست إليه النظر، فوجدته قد اتجه إلى الخزانة، واندفع يقلب محتوياتها...

كيف اجترأ أن يقفل الباب بالمفتاح وهي معه؟!. من يظنها؟! ورمته بنظرة حادة...

obeikandi.com

وأبصرت خصلة من شعره الذهبي قد تهدلت على جبهته... يا لله! لم تره على هذه الفتنة قبل الآن... قامة مبسوطة، ومنكبان عريضان، ووجه صبيح عليه طابع الرجولة الحق!

لم تره قبلُ في هذه الفتنة، على أنها نشأت وإياه في منزل واحد، وكان يكبرها بعشر سنين، فهو ينظر دائماً إليها نظرات الأخ الكبير إلى أخته الصغرى...

ووقع بصرها على خيالها في المرآة، فتذكرت معابثته إياها إذ كان يلقبها أحياناً بالضفدع، لقصر قامتها!

ورفعت عينيها إليه ثانية

ها قد حبسها معه في حجرة واحدة، هذا الفتى المبسوط القامة، العريض المنكبين...!

إنه يتظاهر بالبحث عن كتاب، ويطيل التقليب فيما بين يديه، وقد يكون الكتاب المقصود على قيد أنملة منه!

ما أجهله بعقول الفتيات!... إنه ما برح يتوهمها طفلة، على حين أنها استقبلت منذ أيام عامها السادس عشر!

ولكن أية مفاجأة تلك التي يفكر فيها؟

أهجوم مصحوب بقبلة حرّى؟

إن يدها على استعداد لدفع هذا الهجوم!

صفعة قوية تثيب إليه رشده...

وجعلت ترنو إليه، وهو منهمك يبحث عن الكتاب، وكان مرتدياً منامةً حريرية تتموج على جوانب جسمه الرياضي البديع، الذي يحسده عليه أجمل كواكب (السينما)...

وأطالت النظر إلى ساعديه القويين، فاختلج جسمها بهزة كهربية...

لقد أنبها أخيراً لأمور تتعلق بسلوكها... أتكون الغيرة قد بدأت تتسلل إلى قلبه؟!

هو قليل التحدث معها، ولكنه كثير التفكير والسهوم. وهل تنسى يوم سارقها النظر، فتضرج وجهها؛ فغضب لافتضاح أمره، ونهرها بشدة؟!

ما أشد كبرياءه! ولكنها ستهزم اليوم هذه الكبرياء هزيمة ساحقة...

سيجثو تحت قدميها، ويقول لها: (كم أحبك... كم أحبك يا عصفورتي الصغيرة!... فتجيبه، وهي مهتاجة: (دعني أخرج!.. افتح لي الباب...) ثم يمسك بيديها، ويغمرها بقبلاته وهو يكرر: (ارحميني!... ارحميني!...)

وأخيراً رفع رأسه عن كومة الكتب، ثم التفت إليها، فرآها تبتسم له، فأجابها بابتسامة سانحة!

تلك هي العاصفة توشك أن تهب، فلتستعد لها...

إنها لم تره على هذه الوسامة قط...

أتـراه يفكـر في حملهـا بـين ذراعيـه، ثـم يقفـز بهـا مـن النافذة إلى الحديقة، ثم يظل يعدو بها. قد يعقد الذعر لسانها، فـلا تستغيث ولا تتحـرك. . . فـلا يفتـأ يجـري ويجـري. . . فـإذا مـا امتلكـت نفسـها، واسـتعادت شـجاعتها، وأرادت أن تصـيح، أسكتها بقبلة طويلة!

لـم يعـد يبحـث عـن الكتـاب، إنـه في تفكيـر شـارد مضطرب. يُعد برنـامج الهجـوم. . . أفـلا تتقـدم إليـه من فـورهـا، وتباغته بقولها:

لقد كشفت عن خططك. . . سأفسدها عليك. . . افتح الباب، ودعني أخرج. . .)؟!

والتفت إليها في هذه اللحظة، ثم رأته يدنو منها. . .

يا لله! ما أشد خفقان قلبها!. . . إنها تسبل جفنيها. . .!

وسمعته يقول:

هذا هو الكتاب.

فرفعـت إليـه بصرهـا، فـإذا بـه يمـد إليهـا يـده بالكتـاب الـذي كان وعـدها بـه. وقـد زوى مـا بين حاجبيـه. . . فـأخذته منـه في صمت!

وأبصرته يفتح البـاب بالمفتـاح، وينفـذ منـه، وهـو يصـيح بالخادم قائلاً:

obeikandi.com

ألـم آمـرك غيـر مـرة بإصـلاح هـذا البـاب؟ إن المـرء ليضـطر لاسـتعمال المفتـاح كلمـا دخـل أو خـرج تفاديـا مـن هـذا التيار الشديد!... ثم اختفى عجلاً.

ولبثت الفتاة طويلاً تحدق في الجهة التي اختفى منها... ثـم وقـع بصـرها عفـواً على الكتـاب في يـدها فانـدفعت إلى النافذة، وقذفت به!

ثـم ارتمـت على المتكإ، وانكبـت على منـديلها تمزقـه بأسنانها...

obeikandi.com

في ظلمة الليل

في أصيل يوم من الأيام، كان (الشيخ حابي) في بستانه الصغير، أمام داره المتواضعة، يتعهد تخيلاته ويستريض. فاسترعى انتباهه خفق أقدام، فالتفت نحو مصدر الصوت، فإذا بفتى يسير صوبه، وهو يدفع - في جهد - قدميه المتعبتين، وقد علاه الغبار، فاختفت ملامحه؛ بيد أن الناظر إليه يستطيع أن يلمح في عينيه على الفور حيرة الغريب. وكان يحمل في يده صرة؛ فخف الشيخ للقائه، وما إن اقترب منه، حتى سمع الفتى يقول في صوت الهامس:

- الشيخ حابي؟

- هأنذا... ما مطلبك؟

ووجد (حابي) الفتى يتخاذل أمامه، فأسرع إليه، وأسنده إلى صدره، محيطاً إياه بذراعيه، وقال له:

obeikandl.com

- أمريض أنت؟

- بل جائع!

وسار به (حابي) إلى داره في رفق، وأجلسه بجوار الباب على مصطبة عارية، وتركه برهة... ثم عاد إليه بإبريق مملوء باللبن، فأخذ يعب منه الغريب، حتى شبع... وبعد أن تنفس طويلاً، تمتم بكلمات الشكر لمضيفه، ثم أطرق وقتاً... وأخيراً، رفع رأسه، وسرح بصره في الشيخ، والكلمات تتراءى حيرى على شفتيه... وابتسم الشيخ ابتسامة تنطوي على عطف وطيبة، وقال:

تكلم يا بني، ولا تخش بأساً... ما حاجتك؟ أن حابي لا يرد حاجة الغريب!

فأمسك الفتى بيد الشيخ، وضغطها في انفعال، وقال:

- لقد حدثوني انك تأتي بالمعجزات، فسعيت إليك أطلب معجزة!...

فتأمل الشيخ وجه فتاه طويلاً، يحاول أن يستكنه ما خلف تلك الصفحة المتربة التعبة من خفية نفسه، وقال:

- معجزة؟... لست كاهناً يا بني!

- أنت أعظم من كاهن...

- أفصح عن غرضك!

obeikandl.com

- إن قوة تعاويذك وعقاقيرك يا أبت مستمدة من روح الآلهة...

- أنا حكيم زاهد، قد أنجح في مداواة النفوس وتطبيب الأجسام...

وحدق الفتى في الشيخ بعيون جاحظة، ثم هبط أمامه، وقال وقد تشبث بثوبه:

- وحق إيزيس لتنتزعن نفسي من بين جوانجي، ولتلقين بها بعيداً عن جسدي!

- هدئ من روعك...

- إني أمقت هذه النفس الخاملة الميتة... لتخلقني خلقاً جديداً، ولتجعلن مني رجلاً ذا بأس واقتدار!

وجعل الشيخ يلاطف رأس الفتى، ثم أنهضه في وداعة، وأجلسه بجواره. وبعد حين، قال له في هدوء ورزانة:

ارو لي قصتك يا بني... إني مصغ إليك في انتباه!

ودعم الفتى وجهه براحتيه، وراح يرسل الطرف أمامه في ذلك الفضاء العظيم، حيث يبسط الغسق على الكون غلالته السوداء. وأنصت برهة إلى ما يحيط به من صمت شامل. ثم تكلم فإذا به يقول:

أنا راموسي... ولكن ماذا يهمك من أسمي؟ أن راموسي نكرة لا يحس وجوده أحد

- تكلم!

- إني أسكن على مسيرة شهر من هنا...

- في بلدة رنسي؟

- نعم!

- ذات المعابد الأربعة، والمسلات الخمس؟!

فواصل (راموسي) حديثه، وقد رق صوته وضعف: وحيث تسكن الأميرة أشمس...!

وطأطأ رأسه حيناً، ثم رفع عينه بغتة، وسددها في وجه (حابي) وقال في صوت غير متساوق النبرات:

أريد أن أكون عظيما... أريد أن أكون مثرياً... تزخر خزائني بالأموال... أريد!...

فابتسم الشيخ في هدوء، وقاطعه قائلاً:

أنه ليس بالطلب المستحيل...

فاستنار وجه الشاب بلمعة متلألئة... وقال:

إذا ستأتي لي بمعجزة!

- أن ما تسميه أنت معجزة يا بني، أسميه أنا أمراً قد يستعصي على بعض الناس، ولكنه في مقدور آخرين!

فهوى (راموسي) على يدي الشيخ، وانهال عليها تقبيلاً، وهو يقول:

obeikandl.com

شكراً شكرا، سأذكر لك ذلك الجميل ما حييت، وسأعوضك عنه أضعافاً مضاعفة...

ثم رفع رأسه، وقال:

أما الآن، فليس لي ما أقدمه لك سوى...

وتعثر لسانه بالكلمات، فسكت وأشار إلى الصرة التي بجواره، وفتحها بيد راعشة أمام (حابي) فنظر فيها الشيخ، فإذا بخليط من قطع المعادن، بينها شيء قليل من الفضة والذهب. وتابع (راموسي) كلامه وقد غض من بصره:

- هي كل ما تبقى لي مما أملك!

- أبقها لك...

- إنها قليلة... أعرف ذلك!

- كلا، فهي كثيرة إذا كانت منك. وهذا يكفي... ولكنني لست في حاجة إلى عطاء الناس...

- أبت!

ونهض (حابي) في هدوء وهو يقول:

- إلا ترى يا بني أن الليل قد أقبل يحمل في أعطافه برد المساء، وأنا كما ترى شيخ...

- هيا...

وتركا المصطبة، ودخلا قاعة غير رحيبة، بسقف منخفض تكاد تكون عارية إلا من حصير وغطاء

obeikandi.com

وأشعل (حابي) مصباحه الزيتي، ثم جلس وأراح ظهره على الجدار وقد طوى يديه إلى صدره. وجلس (راموسي) قبالته متربعاً، لا يفصله عن الشيخ إلا المصباح...

وانقضت برهة لم يتكلم فيها أحد منهما

ثم سمع (حابي) يردد في صوته الرزين:

- إني مصغ إليك!

فلم يحول الفتى عينيه عن المصباح وقال:

- كيف ابدأ لك قصتي... حقاً أنه لجنونٌ ما فكرتُ فيه... غير أني لست نادماً على شيء... لقد كنت أحيا يا أبت متبطلاً، أخرج من داري المهدمة إلى النهر أرتاض على شاطئه حيث بساتين الأمراء، أقضي اليوم كله متنقلاً بينها، أستمتع بمرأى الرياحين، وأستنشق عرفها الزكي. فإذا تعبت استرحت بجوار الماء وأخرجت نايي أناجيه ويناجيني!

- أموسيقي أنت؟

لم أجرب أن أصفر إلا لنفسي...

وأخرج (راموسي) من ثنايا ثيابه نايا من غاب ساذج المظهر، وأراه الشيخ قائلاً:

- أنه زميلي الذي لا يفارقني أبداً... زميلي المطلع على سري، العالم بما يجيش في قلبي من أمان وأطماع!

- أمان وأطماع قد تبدو لك بعيدة التحقيق!

- أنني أضعها بين يديك، فافعل بها ما أنت صانع!

- ألم تكن راضياً عن حياتك الهادئة؟

- كل الرضا!

- إذاً (هي) التي غيرت حالك...

- من هي؟

- تلك التي ذكرت اسمها، مشرفاً بذكره مدينة رنسي!

- نعم، هي أشمس، أميرة الأميرات، وأقربهن صلة بفرعون الأعلى!

- أتمم حديثك...

- رأيتها يوماً تتنذه في بستانها، فسحرني لأول نظرة جمالها؛ رأيتها ترتاد الخمائل في حاشيتها؛ فجعلت أرقبها خلف دغل من الأشجار، وأضاءت نفسي على التو شمس وهاجة أنارت لي دنيا عظيمة كانت مختفية عني. وإذا بي أقطع على نفسي عهداً بأنها لن تكون لسواي... ولما عدت إلى داري، وراجعت هجسات ضميري، هزئت بنفسي، وكلي سخط وألم. ولكن عهدي ما زال ثابتاً على الرغم من كل شيء، لا يتقهقر ولا يتزايل، بل يتقدم في جرأة وإقدام... ولكن كيف أنفذ ذلك العهد؟ هذا ما كان يحيرني ويحز في قلبي. منذ ذلك اليوم جعلت طريقي إلى بستانها لا أعرف سواه، أقضي على مقربة منه يومي، أراها ولا تراني. فإذا ما صعدت في قصرها انتحيت

obeikandl.com

نحـو الشـاطئ، وتخيرت مكانـاً ظلـيلاً، وبثثـت شـكواي للنـاي، فكنت أسمعه أحياناً يهمس لي: (لماذا لا تحاول التقرب إليها؟... ... لماذا لا تكشف لها عن كوامن صدرك؟...)

- ولماذا لم تصدع بما أوحي لك به نايك؟

- أتريد مني أن أستمع لذلك الساذج الغرير؟ ألم أقل لـك مـن هي؟ أن فيهـا مـن دم الآلهـة يـا أبـت!... وكلنـا نعلـم أن عظاماً تقدموا إليها بقلوبهم، فردتهم خائبين... لقد أمضيت يا أبت الليالي الطوال أفكر في مصيري معها... لابد أن تقع معجزة تحولني من صعلوك بائس إلى أمير يفوق جميع الأمراء، يرضاه فرعـون وترعاهـا ايـزيس... وكـان أن اشـتد بـي الضـيق يومـاً، فجريت صوب النهر، وهممت أن ألقي بنفسي إلى التماسيح... في تلك السـاعة الفاصلة، سمعت هاتفاً يقول لي: (اذهب إلى حابي الحكيم، فعنده تتم المعجزة)

فتمتم (الشيخ حابي):

- أقال لك الهاتف ذلك؟

- قسما بإيزيس ربة الأرباب، لقد سمعت صوته واضحاً يرن في أذني. وكانت التماسيح قد خرجت برءوسها تنظر إلي متنمرة فوجدتني في لحظة أقفز متراجعاً عن النهر، وانطلقت أعـدوا... أكنـت أعـدو حقـا؟ لا أدري! كنـت أحـس أني محمـول بقوة خارقة غير منظورة..

وفي الغد بعت ما أملك، واستصفيت مالي، وحملت زادي، وسرت ووجهتي دارك!

فأمسك (حابي) بيدي (راموسي) وضغطهما وقال:

- ستتم المعجزة يا ولدي، فاعتمد علي

- إذاً ستجعلني أمير الأمراء؟ وإذاً ستجعل من أشمس زوجة لي؟

- أن علمي لا يتطاول إلى مثل هذه الأمور!

- كيف؟

- كل ما أقدر عليه أن أعمل على تغيير نفسيتك...

- أوضح يا أبت!

- سيتغير فيك كل شيء، شمائلك الأصيلة ستنقلب إلى ضدها، الخمول سيغدو نشاطاً متأججاً، والقناعة ستكون طمعاً صاخباً، والرحمة ستفسح مكانها للقسوة والعنف... ستكون حياتك يا راموسي كالبركان الفوار، لا يخبو له لهب، ولا يسكن له زئير!

فطأطأ (راموسي) رأسه، وقال:

- أبت!

- ليس ثمة طريق ينيلك ما تطلب من ثروة وجاه ومجد، إلا هذا الطريق!

obeikandi.com

وصمت (راموسي) فترة، ورأسه منحن على صدره، وبغتة رفع وجهه إلى (حابي) وقال:

- ولكن حبي، حبي... أيعتريه تغير؟

- حبك باق بقاء الروح الخالدة... ولكن!

- ماذا؟

- أواثق أنك ستكون سعيداً بنفسك الجديدة، بعد أن تتم المعجزة؟ وانه لن يطول بك الحنين إلى نفسك الأولى؟

-... افعل بي ما تريد!

ودارت عجلة الحياة: الأيام تلو الأيام، والأشهر إثر الأشهر...

وكان ملك الغرب قد دفعه الطمع إلى امتلاك مصر، فسير إليها الجيوش الكثيفة؛ فغزت المناطق الشمالية في غير عسر، ثم اندفعت في طريقها تكتسح أمامها جند الوطن. ولم يجد تعيين القائد الكبير (رودا) أميراً على الجيش الذي أرسله فرعون لإنقاذ البلاد... إذ أصيب (رودا) بهزيمة نكراء، وقتل في المعركة، وكاد الجيش يتفكك ويندثر، لولا أن قيض الله له شاباً من بين المحاربين تزعمه، فأخذ يجمع شمله، ويبث فيه روحاً جديداً؛ فلم ينقض وقت طويل حتى انقلبت الهزيمة إلى هجوم، ثم انته الهجوم إلى مطاردة للعدو، فاكتساح كامل له. واصبح هذا الشاب قائداً للجيش، ولقب نفسه بالأمير الأسود،

obeikandl.com

إذ كان يرتدي السواد دائماً. . . ولم يقتصر هذا الأمير على تطهير البلاد من جيش العدو، بل تابع زحفه في جرأة غريبة، ففتح (مملكة الغرب) بأسرها، وأخضعها لسلطان مصر، فصارت تابعة لها. . .

كانت (رنسي) المدينة ذات أربعة المعابد وخمس المسلات حاضرة مصر الثانية، تحتفل احتفالاً شائقاً بقدوم الجيش المنتصر، وعلى رأسه أميره الأسود، فقد عاد محملاً بأسلاب وغنائم لم يأت بها قائد منتصر من قبل. وكان موكبه حافلاً بالأسرى العظام من الأمراء والحكام وسراة الدولة المغلوبة. أما بقية الأسرى من الدهماء، فقد اكتفى بقطع أيديهم، وأطلق سراحهم، حتى لا يعطلوا سير الموكب بكثرة عددهم. ولكنه احتفظ بتلك الأيدي، فحملها معه ليقدمها إلى فرعون، رمزاً للخضوع والطاعة!

وتمت مراسيم الاستقبال في عظمة وفخامة جديرتين بالقائد العظيم والفاتح الكبير!. . . ولكن الأميرة (أشمس) أولى أميرات البيت الفرعوني، تخلفت عن حضور الاحتفال، وأرسلت تعتذر لفرعون. وكان فرعون يعرف شذوذ طباعها واعتزالها العالم، فقبل عذرها على مضض. ولكن رسول الأمير الأسود جاءها يحمل من الأمير نفسه رغبته في زيارتها قبل

الغروب لأمر ذي بال؛ فلم تجد مخلصاً من استقباله، وأمرت أن يعدوا القصر لهذا القدوم.

وأخذ الأتباع يعلمون بجد واهتمام في تزيين القصر، فما كادت الشمس تؤذن بالغروب حتى برز القصر في غبشة الظلام كأنه قطعة من لؤلؤ تتألق؛ وانتشر الطيب الذكي في أرجائه، فكأنه روضة فواحة من الأزاهر النضرة.

وجاء الأمير في الموعد في حفل من قواده، ودخل القصر وهو يضرب بقدميه الصلبتين الأرض ضربات شديدة تردد صداها جوانب المكان، ويلتفت يمنة ويسر بوجهه الرائع الذي تنم كل لمحة من لمحاته على رجولة قوية قاسية. وكانت لعيونه الواسعة إشعاعات قوية باهرة لا تقوى عين أُخرى على تحديها...

وما أن دخل البهو الكبير، ورأى الأميرة واقفة في صدره تحف بها وصيفاتها، حتى توقف بغتة، واتسعت حدقتا عينيه، وتفتح وجهه في لحظة بنور متألق تشيع فيه الأحلام. وأمسك بيد رفيق له بجانبه، وشد عليها؛ وطالت وقفته على هذه الحال والناس من حوله صامتون. وأخيراً همس رفيقه في أذنه:

- مولاي! إن الأميرة تنتظرك... تقدم!

وتقدم الأمير الأسود بخطوات لم تردد صداها جوانب المكان هذه المرة، وركع أمامها ركعة المتبتل أمام ربه فأنهضته، وهي تقول:

نحن الذين يجب أن نركع أمام المنقذ العظيم!

ورفع وجهه أليها، وقال في صوت خفيض:

عفواً مولاتي!... أمام هذا الجمال الإلهي الذي هو قبسة من رع، ونفحة من إيزيس، يستشعر القائد العظيم ضآلة نفسه وتفاهة مجده!

- سيدي!

- ليس ثمة عظيم أمامك يا مولاتي!... كلنا من أتباعك المخلصين!

وتهامس الناس فيما بينهم دهشين حيارى:

لم يشاهد الأمير على هذه الصورة، حتى في حضرة فرعون الأعلى!

وبدأت الجموع تتفرق والمكان يخلو للضيف وربة القصر، وأخذ القائد يروي وقائعه، ويعدد أسلابه، ويذكر ما ناله من مال وضياع تتعادل معها أموال فرعون العظيم. وختم حديثه قائلاً:

إن الأميرة لتعلم أن فرعون بلا عقب، وهو الآن شيخ مثقل بالمرض، وقد طالبته الكهنة بتبني أمير يجعله ولياً للعهد، أمير أهل لهذا المنصب الخطير...

- وهل وقع اختيار الملك على هذا المحظوظ؟

فابتسم الأمير ابتسامة ذات معنى، وقال:

لقد أتم اختياره سراً، وسيعلنه غداً في الهيكل الكبير!

وصمتت (أشمس) وهي تتفحص الأمير طويلاً... ثم انحنت في خشوع وهي تقول:

يسعدني أن أكون أول من يقدم طاعته لصحب التاجين، وريث ملك الفراعنة العظيم!

فأمسك الأمير بيدها، وقال:

هذا الملك العظيم، وهذا النصر الباهر، وهذه الأموال التي لا يستطيع أن يحصيها أحد. كل ما كسبته وما سأكبه، أضعه تحت قدميك أنت يا أميرتي، ويا مولاتي!... أقدم لك كل هذا مقابل شيء واحد منك...

فأسبلت الأميرة جفنيها، وتابع الأمير حديثه في لهجة مشبوبة:

كلمة منك يا أشمس تجعل هذا الوادي الفسيح بسكانه وكنوزه، هذا الملك الضخم طوع يديك... قولي كلمة الرضا، ثم مري، فلن يعصي لك أحد أمراً...

ونهضت الأميرة، وهي تقولي في صوت حبيس:

ألا نذهب إلى الشرفة فنلقي نظرة على البستان؟

فأجابها الأمير، وهو حائر:

كما تريدين!

وذهبا إلى الشرفة، وأطالت الأميرة النظر إلى الحديقة، وهي تصعد بصرها في أشجارها وأزاهيرها. ثم قالت:

أيسمح لي الأمير أن أقص عليه قصة صغيرة؟

فأجابها، وهو يزداد عجبا:

إني مصغ إليك يا أميرة!

- كان في الزمان الغابر فتاة من الأثرياء، من أسرة رفيعة النسب؛ تحيا ناعمة البال في قصرها ذي البستان الكبير حياة ترف ورغد، ولم يكن لها مطمع تصبو إليه إلا العثور على أليف تنعم معه بحب ووفاء، شأنها في ذلك شأن كل فتاة. وحج إلى قصرها أعلى الأمراء شأناً، وأكثرهم جمالاً وثراء يطلبونها للزواج فردتهم بلا أمل...

- ولم ذلك!

- لأنها كانت مخدوعة بنفسها، مغرورة بجمالها، فلم يرقها واحد من هؤلاء الأمراء!

- ومن كانت تنتظر أن يتقدم لها بعد هؤلاء، وهم صفوة البلد...؟!

وتريثت الأميرة في إجابتها، وهي تسرح طرفها في الأفق حيث الظلام مقبل في وحشته وصمته وأسراره... وقالت:

- هي نفسها لم تكن تدري، ولكنها على الرغم من ذلك كانت تنتظر وتؤمل!

- وهل طال انتظارها؟

- كلا!

- إذاً عثرت على ضالتها؟!

- نعم أيها الأمير...

- أكان قائداً غازياً؟

- كلا!

- أوزير خطير هو؟

- كلا!

- إذا هو ملك من نسل الآلهة!

- ولا هذا أيضاً...

- من يكون؟!

- وأرسلت الأميرة تنهدة خفيفة وقالت في صوت الهامس:

- شاب رقيق الحال، مرهف الشعور!

- وما مهنته؟

obeikandl.com

- ليست له مهنة، كان يقضي أيامه يجوب البساتين، ويتنزه على ضفاف الانهار، يستمتع بمحاسن الطبيعة!

- أنها حياة أقرب إلى التبطل والصعلكة...

فتمتمت الأميرة بلهجة الحال، وهي تستقبل بعينيها كتائب الظلام المكدس بعضها فوق بعض:

- قد يكون ذلك، ولكنه الوحيد الذي استطاع أن يصهر كبرياءها، ويحطم تاج غرورها!

فندت عن الأمير صرخة:

هو؟!... أممكن ذلك؟

أجل لقد أحبته الفتاة، أحبت فيه ذلك الشاعر المرهف الحس، ينشدها أعذب ألحانه وأرقها!

- أكان شاعراً ينظم لها القصائد، وينشدها إياها؟

- كان ينظم قصائده بلا كلام، وينشدها إياها من مزماره الرخيم!...

فأصابت الأمير هزة شديدة، وقال في صوت جياش:

- وهل تقابلا؟

- كلا، فهي لم تره، بل أغرمت به على البعد!... ولا تدري أراها، أم لا؟!

- لا ريب في أنه رآها...

obeikandi.com

- ليس ذلك مؤكداً، فعيون هذا الشاعر الجوال، كانت أقصر من أن تخترق خمائل البستان أو جدران القصر، لتكشف عن الفتاة وتلتقي بعيونها!

- يا للفتى البائس!... لو علم أنها تضمر له هذا الحب لطار إليها، وارتمى تحت قدميها يلثمها في عبادة...

- من يدري أيها الأمير؟... أنه فتى غريب الأطوار، يعيش وفق هواه... قد يرفض حبها لو تقدمت به إليه!!

- محال!

- ولكنه لو كان يعلم كم أحبته هذه الفتاة، وكيف أنه ترضي أن تعيش معه تقاسمه حياته الطليقة في دنياه الرحبة الوضاءة لقبل منها هذا الحب!

وتمتم الأمير بكلمات متقطعة، وقد شد بيده على حاجز الشرفة حتى كادت أصابعه تدمى، وتابعت الأميرة حديثها:

- لقد برمت الفتاة بحياة الثروة والجاه التي تحياها، وتوضحت أمامها بشاعتها، وأحست ثقلها المرهق يحبس أنفاسها. فرغبت أن تفر من بيئتها، تستبدل الكوخ الساذج الهادي بالقصر المنيف الصاخب، والرداء الخفيف المزين بالأزهار بالثوب الثمين اللامع بأوصال اللآلئ... لقد برمت بكل

شيء يحوطها، واشتدت بها الرغبة أن تهرب، فتلحق بشاعرها تقضي حياتها في حمى مزماره!!

- ولكنها لم تفعل!

- لقد كادت... ولكن الفتى اختفى فجأة!

- أهرب؟

- إن الناس يرجفون بموته، فقد تكون التماسيح أكلته... ومن ثم أسدلت الفتاة على حياتها ستراً غليظاً يحجبها عن العالم أجمع!

- قد تسلوه يوماً، فترضى الزواج بأمير كبير!

- إن القصة تحدثنا أن الفتاة قضت في عزلتها عامين، وهي لم تتغير... إنها لا تطلب الأمير، ولن تطلبه، بل ستحيا مترقبة شاعرها الفقير كما هو بردائه الساذج، وقلبه الكبير... لن تستبدل به أحداً مهما يعظم قدره ويتسع ماله!

- وهنا تنتهي القصة... أليس كذلك!

- تكاد تنتهي، والبقية في كلمتين، أتريد أن أتمها لك؟

فقال الأمير، وهو يضغط كلماته في حسرة مكتومة:

- إذا رغبت، أتممتها أنا لك!

فتمايلت الأميرة، وعرضت على وجهها ابتسامة، وقالت:

- كيف؟ أو تعرفها؟

فقال في شيء من السهوم:

- إن حذقك في رواية القصة، قد جعلني أحرز خاتمتها!

وراح الأمير يحد بصره في نجوم الليل البعيدة، كأنه يريد أن يستلهم منها كلمة نصح أو هداية... ولكن لم تطل وقفته على هذه الصورة، فانحنى أمام الأميرة، وقال:

- لن أنسى ما حييت حسن احتفائك بي!

وقبل يدها قبلة طويلة عميقة، ثم ترك المكان لا يلوي على شيء...

واستقل على الفور عجلته الحربية، واستأذن رفاقه!

وانطلقت به العربة، هائمة في أديم الصحراء، تشق أمامها سجف الظلام شقاً!...

في الطريق إلى قرطبة

(عندما استتب الأمر لأبي العباس السفاح أول الخلفاء العباسيين هرب الأمير عبد الرحمن الأموي من العراق ووجهته الأندلس ليتسم عرش الأمارة فيها بمعاونة أنصاره الأمويين. فبينما كان في شمال أفريقيا وقعت له هذه الحادثة التي نرويها)

كان القمر ينشر نوره الفضي على قرية (مغيلة) في مراكش، فتبدو الدور على ضوئه الهادئ كأنها تتمطى مبتسمة

رافعة هاماتها إلى السماء تنفض عنها فتور النوم. في تلك الساعة التي بدأت فيها القرية تتنفس كان يسير في طريق من طرقاتها المهجورة رجل طويل القامة نحيف الجسم ملتف بعباءة دكناء ووجهه ملثم. كان يسير سيراً حثيثاً في مشيه حذرة، متجنباً الأماكن التي انجلت عنها غبشة الليل، تدل مظاهره التي يجتهد في إخفائها على الأمارة والجاه. ولما دنا من دار (وانسوس) رئيس أقوى قبائل البربر في تلك الجهة توقف عن المسير والتفت حوله ثم دفع الباب في سكون ودخل، ثم أحكم إغلاقه خلفه، وما إن خطا بضع خطوات، حتى تقدم إليه (وانسوس) في خضوع وقال في صوت خافت:

- مولاي الأمير

- كدت أضل الطريق

وبدأ الزائر يرفع لثامه ويحل عباءته، فظهر عارضاه الخفيفان وبانت ضفيرتاه على ظهره، وسار بخطوات رزينة وخلفه (وانسوس)؛ وقال:

- هل أحضر (بدر) الجواهر؟

- أحضرها يا مولاي وهي وديعة عندي لا تستطيع أن تمتد إليها يد إنسان

- وماذا قال لك؟

- إن أختك (أم الإصبع) تقرئك السلام وتقول لك إنها سترسل لك غيرها

- بورك فيها... وماذا بعد ذلك يا (وانسوس)؟

- وإن وهب بن الأصفر وشاكرين أبي الأسمط يستحثانك على السفر، إن المراكب معد وهم في انتظارك

وكانا قد تلغا بهواً تتوسطه نافورة وقد نثرت بجوار حيطانه وسائد عريضة؛ فوقف الأمير أمام النافورة يتأمل المياه ويداه مثنيتان على صدره وقال:

- وأهل الأندلس؟

- يرحبون بمقدمك لتنقذهم من أميرها يوسف بن عبد الرحمن الفهري. هناك أبناء عمومتك يا مولاي ومعهم أنصارهم الأقوياء ثم لا تنس القبائل اليمنية

- هذه حطمتها قوات الفهري

- بل ما زالت محتفظة برجالها الأقوياء

- إن الحروب الأهلية يا (وانسوس) قد نهكت الأندلس، وعمها القحط وجلا كثير من أهلها عنها، فإذا أردنا أن نستعجل النصر فلنعتمد على الذهب نكسب به الأنصار

ودخلتْ في تلك اللحظة (تكفات) زوجة (وانسوس) وكانت امرأة بدينة تلبس إزاراً واسعاً، دخلت في عجلة واضطراب وهي مكفهرة الوجه وقالت:

openkandi.com

- بينما كنت على السطح في مكاني المخصص للمراقبة أبصرت رهطاً من الرجال مقبلين في سرعة وتلصص نحو الدار، فما شككت أنهم من رجال ابن حبيب

فتغضن وجه الأمير وقال بصوت أجش:

- لقد وشي بي الواشون

وهرع وانسوس إلى البرج ليستعلم الخبر ثم عاد مضطرباً وهو يقول:

- عجل يا مولاي بالهرب

وجرى الاثنان نحو البرج، ولكن ما كادا يطلان منه حتى عادا أدراجهما والأمير يتمم:

- لقد أحاطوا بالدار

وسمعت في هذه اللحظة جلبه عالية في الخارج فيها وعيد وتهديد وطرح الأمير عبد الرحمن عباءته واستل سيفه ووقف وقفة الجبار ناظراً إلى باب البهو وقد انطبع على محياه المهيب عزم رهيب وقال:

- إني لأشعر بأرواح بني أمية كلها قد تقمصت جسدي فيأت ابن حبيب وجيشه يجرب حظه معي

واشتدت الجلبة وسمع قرع قوي على الباب وأصوات تقول:

- افتحوا...

وقال الأمير لوانسوس:

- اذهب وافتح الباب

ووقف وانسوس متردداً

وتكرر القرع بحماس شديد. وسمع الباب يهتز ويتفلق والأصوات تتعالى في سخط مرددة:

افتحوا. افتحوا...

فقال الأمير وهو ينظر إلى وانسوس نظراً حاداً:

- لقد أمرتك أن تفتح الباب

فقال وانسوس في ذلة ويأس:

- الأمر لك يا مولاي

وذهب قاصداً الباب. وما كاد يخرج حتى أشرق وجه تكفات بغتة ولمعت عيناها. وتقدمت في جرأة غريبة نحو الأمير وقالت:

- إنها لحظة من لحظات الدهر الخالدة. فإما إلى العرش وإما إلى القبر... تعال

وفتح وانسوس الباب فتدفق الرجال في صحن الدار وضجتهم تسبقهم، ووقف زعيمهم مكشراً أمام وانسوس وقال:

اقبضوا على هذا الخائن...

وفي لحظة كان وانسوس مقيداً وملقى بجوار الحائط؛ وأتم الزعيم أمره قائلاً:

obeikandi.com

- دونكم الدار فلا تتركوا مخبأ إلا دخلتموه، أو ركناً إلا فتشتموه، وإياكم ألا تعثروا عليه

فانتشر الرجال في الدار يفتشون، وسار الزعيم في رهط من أنصاره قاصداً إلى بهو النافورة واختفى الجميع فيه

ومضى الوقت ووانسوس ملقي بجوار الحائط يصغي بأذن مرهفة إلى ضجيج الرجال في داخل داره وعيناه الحائرتان لا تفارقان باب البهو

وأخيراً فتح الباب وخرج منه الزعيم وخلفه رجاله. ولما دنا من وانسوس ألقى عليه نظرة احتقار ثم التفت إلى جماعة بالقرب منه وقال:

- حلوا وثاق هذا الرجل

ثم سار في عجلة نحو الباب وهو يدمدم بكلمات غير مفهومة وخرج والجميع في أثره. وقام وانسوس وهو يفرك عينيه دهشا، وبعد أن أحكم قفل الباب سار مهرولاً إلى بهو النافورة فوجد زوجته (تكفات) جالسة على إحدى الوسائد متكئة بظهرها على الحائط؛ فما شك وانسوس أن قواها خارت من الخوف. فأقبل عليها وسألها قائلاً:

- أين الأمير؟

وفي لحظة كشفت إزارها الواسع فخرج من بينه الأمير وما إن توسط البهو حتى قال:

Obeikandl.com

- تالله إن عرش الأندلس لمدين (لتكفات) بهذه الحيلة لن أنسى لك هذا الجميل يا (تكفات)

فانحنت المرأة أمامه في خضوع

ووقف الأمير عبد الرحمن أمام النافورة ويداه مثنيتان إلى صدره، وقال وقد سطع على وجهه العزم واليقين في صوت ممتلئ قوي:

لقد بت أعتقد أن العناية تساعدني. فهناك على شاطئ الفرات حيث كانت فرسان أبي العباس تلاحقني أنا وأخي نجوت بأعجوبة لم أكن أحلم بها في حين أن أخي قد عاكسه القدر فقبض عليه وقتل على مرأى مني. وهنا تمر بي رجال أبي حبيب وأنا على بعد خطوات منهم فلا يخامرهم شك في أني غير موجود

وأرسلت عيناه وميضاً عجيباً، والتفت حوله وهو رافع الرأس كأسد منتصر على فريسته وقال:

- إيه أيها القدر! تعصمني والعباسيون يتهالكون على الفتك بي، يطاردوني في كل شبر من الأرض... إني لأرى الأندلس تدنو مني كما يدنو مقبض هذا السيف من يميني

obeikandl.com